الأنا والآخر في رواية "الصدمة" لـ ياسمينة خضرا

أيت عيسى عمار
جامعة بجاية ـ الجزائر
ammaraitaissa@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2018/08/01 تاريخ القبول: 2018/11/29 تاريخ النشر: 2018/12/27

الملخص

رواية "الصدمة" للروائي الجزائري محمد مولسهول المعروف بـ ياسمينة خضرا، من الروايات المعاصرة، عرضت علاقة الأنا بالآخر، كونها أحد مواضيع التجريب الروائي، حيث كانت الأنا ممثلة بالهوية العربية الفلسطينية، في حين كان الآخر ممثلا باليهودي الإسرائيلي. ولقد تناولت هذه الدراسة بالتحليل هذه العلاقة التي يحكمها الصراع غالبا، والذي كان سببه، حسب الرواية، هو الصورة النمطية المتجذّرة لدى الأنا، ولدى الآخر، وغياب العقل الذي كان سببا للنتائج الكارثية التي عادت عواقبها وعصفت بالإنسان المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الأنا، الآخر، الهوية، الصورة النمطية.

Résumé

Le roman "Shock" du romancier algérien Mohamed Molshoul, connu sous le nom de Yasmina Khadra, de romans contemporains, a présenté la relation du moi à l'autre, comme l'un des thèmes de l'expérimentation narrative, où le moi était représenté par l'identité arabe palestinienne, l'autre par le Juif israélien. Cette étude a analysé cette relation souvent conflictuelle, qui, selon le roman, était causée par l'image stéréotypée du moi, l'autre, et par l'absence de raison qui était à l'origine des conséquences catastrophiques de la masculinité contemporaine.

Mots clés : Moi, autre, identité, stéréotype.

Abstract

The novel "Shock" by Algerian novelist Mohamed Molshoul, known as Yasmina Khadra, of contemporary novels, introduced the relationship of the self to the other, as one of the themes of narrative experimentation, where the self was represented by the Palestinian Arab identity, the other by the Israeli Jew. This study analyzed this often conflictual relationship, which, according to the novel, was caused by the stereotypical image of self, the other, and by the absence of reason that was at the root of the catastrophic consequences of contemporary masculinity.

Key words: Me, other, identity, stereotype.

تمهيد:

في هذا البحث الموسوم "الأنا والآخر في رواية الصدمة لياسمينة خضرا" لن نعرج على المفاهيم النظرية التي أسهبت في تناولها الدراسات التي تندرج تحت موضوع "الأنا والآخر" أو "الذات والآخر"، سنكتفي بالإشارة إلى عنصرين هما غاية في الأهمية – في نظرنا– قبل أن نلج إلى تحليل الرواية، والكشف عن الصورة التي رسمها ياسمينة خضرا للأنا وللآخر، ولطبيعة العلاقة التي تجمعهما، ويتعلق الأمر هنا بـ:

ـ الرواية كجنس أدبي وإشكالية الأنا والآخر: حيث سنحاول في هذا العنصر الربط بين موضوع الأنا والآخر والرواية كجنس أدبي.

ـ التعدد الصوتي وإشكالية الأنا والآخر: وهنا سنبيّن كيف يمكن للتعدد الصوتي كتقنية روائية أن تؤثر في موضوع الأنا والآخر.

إن الهدف من بحثنا هذا، هو الغاية نفسها التي سعت إلى الوصول إليها مختلف الدراسات التي خاضت الموضوع نفسه، المتمثل في استنطاق الصورة التي رسمها الأدب للأنا والآخر وللعلاقة التي تجمعهما، لكن الاختلاف سيكون في طبيعة المدونة التي اخترناها للتحليل.

تندرج الأعمال الروائية لياسمينة خضرا، ضمن ما أطلق عليه النقاد مصطلح "الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية"، ويتميز هذا الأخير بخصوصيات، حاولت الدراسات المعاصرة الكشف عنها،

والملاحظة الأولى التي لا تخفي على الأعيان، هي اتخاذ مجموعة من الأدباء الجزائريين من اللغة الفرنسية وسيلة للإبداع الأدبي.

وعلى هذا أتى بحثنا، محاولة لخوض مغامرة الكشف عن أسرار هذا الصنف الأدبي، الذي تتالت في الآونة الأخيرة الدراسات التي تتخذ منه ميدانا لأبحاثها

1. الرواية بوصفها جنسا أدبيا و إشكالية الأنا والآخر:

إن أول ملاحظة يمكن أن يتفطن إليها الباحث وهو يخوض موضوع الأنا والآخر في الأدب، هو أن معظم الدراسات التي أنجزت حول الموضوع، تستثمر الرواية بوصفها جنسا أدبيا على حساب الأجناس الأدبية الأخرى.

ومن هنا نطرح السؤال التالي: ما هو السبب الذي يدفع الباحثين إلى اختيار الرواية مدونة لأبحاثهم التي تبحث في موضوع الأنا والآخر في الأدب؟ وإذا كانت الإجابة البديهية الأولى أن النص هو الذي يفرض طبيعة البحث، فما الذي يجعل الرواية بوصفها جنسا أدبيا أنسب من غيرها لمعالجه هذا الموضوع؟

تفطن الباحث محمد كمال الخطيب إلى ملاحظتنا الأولى في دراسته حول العلاقة بين المجتمع العربي والغرب، حيث يقرّ بأن "إشكالية اللقاء بين الشرق والغرب تتبدى في الرواية أكثر مما تتبدى في الأشكال الأدبية الأخرى من مسرح وشعر...، نظرا لقدرات الفن الروائي على تمثيل وعكس العملية الاجتماعية بتعقيداتها"[(1)]، وعلى هذا فإن مقدرة الرواية على ترجمة الواقع الاجتماعي، وتجاوزها لسائر الأجناس الأدبية الأخرى في هذه النقطة، هو الذي يخوّلها لأن تكون الأنسب من غيرها من الأجناس الأدبية في معالجة موضوع علاقة الأنا والآخر، فهي تسمح لصاحبها برسم تفاصيل حياة الشعوب بكل حقائقها وأوهامها، ورسم صورة لطبيعة هذه العلاقة التي تجمع الأنا بالآخر سواء من جانبها الإيجابي أو السلبي.

[(1)]: ينظر: محمد كمال الخطيب: المغامرة المعقدة (مقدمة في تاريخ العلاقة بين المجتمع العربي والغرب كما يظهرها الفن الروائي في نشوئه وتطوره)، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق سوريا، الطبعة الأولى، 1976، ص11.

إن الرواية "قادرة على نبش أعماقنا وتجسيد أفكارنا ومشاعرنا وأحلامنا، وطرح ما يعترضنا من إشكالات تعانيها (الأنا) في مواجهة الآخر. كل ذلك يفسح المجال لتقديم اضطراب رؤيتنا وقلقنا وإحباطنا، فيعكس تطور نظرتنا إلى ذواتن وإلى الآخر، مثلما يعكس أوهامنا وأفكارنا المسبقة التي كثيرا ما نجد أنفسنا أسرى لها، إذ تشكل أسس تصرفاتنا وعلاقتنا مع الآخر"[2]، فهي تسمح لنا بالغوص في أعماق الأنا، وتبين موقفها من الآخر، كما تكشف الأسباب الحقيقية التي دفعت الأنا إلى تبني أفكار ومواقف معينة، بحيث تعري ردود أفعال الأنا تجاه الآخر المختلف عنها، كما تتيح لنا التعرف على موقف الآخر تجاه الأنا، وبذلك فإنّها تبرز طبيعة العلاقة التي تجمع الأنا بالآخر، بكل ما تحويه هذه العلاقة من أسس ومنطلقات.

لكن السؤال المنطقي الذي يتبادر إلى الذهن هو، هل الرواية ترسم دائما الصورة نفسها للأنا والآخر لطبيعة العلاقة بينهما؟ أم أنها في كل مرة تحاول مواكبة التطور الحاصل في هذه العلاقة في الواقع؟ وهل تختلف طبيعة هذه الصورة من روائي إلى آخر ومن نص روائي إلى نص روائي آخر؟

إن تميز النص الروائي على نص روائي آخر، واختلاف وجهات النظر بين روائي وآخر، يجعل العلاقة بين الأنا والآخر التي يجسدها روائي ما، تختلف عن تلك التي يجسدها روائي آخر سواء من ناحية الشكل أو من ناحية المضمون، وربما تكون مختلفة بين نصوص روائية لمؤلف واحد.

أما بالنسبة للناحية الشكلية فهي بالضرورة تختلف، لأن لكل كاتب أسلوبه وطريقة في بناء عمله الروائي تختلف عن طريقة وأسلوب غيره، في حين إذا ما تحدثنا عن هذه العلاقة من ناحية المحتوى، نجد من الكتاب من يلتزم بتجسيد التطور الحاصل في علاقة الأنا بالآخر، حيث تمنح "العلاقة الخيالية التي يقيمها في نصه بين الأنا والآخر له فرصة التحرك بحرية أكثر بعيدا عن النمطية والواقعية المألوفة"[3]، في هذه الحالة نلحظ أن الروائي يستثمر ما تتيحه له الرواية من إمكانيات تخييلية، فتسمح له بتجاوز تلك الصور المألوفة والتي تقوم على سكب صورة الأنا والآخر والعلاقة بينهما في قوالب

---

[2]: ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، الطبعة 1، 2013، ص14.

[3]: عالية زروقي: صورة الآخر في الرواية الجزائرية من سنة 1950 إلى سنة 2010م، أطروحة دكتوراه، جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف، 2017، ص45.

جاهزة، وفي الوقت نفسه نجد من يطبع كل نصوصه بالصورة النمطية المألوفة للأنا وللآخر ولطبيعة العلاقة بينهما، وذلك "كما تظهر مثلا في الرواية العربية الصورة النمطية للغرب على أنه، إما غرب استعماري أو غرب حضاري إنساني"[4].

أما عن تاريخ علاقة الأنا بالآخر وارتباطها بالرواية، ففي مقام حديثه عن هذه العلاقة، استبدل نبيل سليمان زخم المصطلحات التي تعبر عن هذه العلاقة من مثل، الأنا والآخر، الذات والغير...، بمصطلح وعي الذات والعالم، وركّز على قدم هذه العلاقة في الفكر الإنساني، فقال أنها "مسألة قديمة لدى مفكري وأدباء سائر الشعوب، وهي لا تفتأ تتوالد وتغتني وتتمظهر، وفيما يخص الرواية، فقد كانت دوما مجالا أدبيا رئيسا لتلك المسألة"[5]، وبالتالي فإذا كان موضوع الأنا والآخر محل عناية لدى المفكرين والأدباء، فإنه قد ظفر بعناية خاصة لدى كتاب الرواية.

يرجع احتفاء الرواية - في العالم الجنوبي مقارنة بالعالم الشمالي (أو الشرقي مقارنة بالغربي) - بموضوع الأنا والآخر، إلى كون الرواية جنسا أدبيا لم يصلنا إلا عبر الاحتكاك بالعالم الغربي، فبالرغم من الاختلاف الطفيف بين بعض النقاد حول قضية نشأة الفن القصصي، بين من يرجعه إلى ما حملته ألف ليلة وليلة، ومن يرجعه إلى ما ورد في مقامات بديع الزمان الهمذاني في القرن الرابع من حكي وقص، إلا أننا هنا نذهب مع الرأي الذي يُرجع ميلاد الرواية بمفهومها الفني في العالم الشرقي، إلى أنّه لم يكن إلا بعد الاحتكاك بالعالم الغربي، فلم "تتضح معالم مصطلح الرواية إلا بعد معايشة الآخر الغربي والاطلاع على إبداعه من طريق التلقي المباشر عبر لغته أو عبر وساطة الترجمة"[6]، ومن هنا نتأكد أنه لا يمكن أن نتصور غيابا لعلاقة الأنا والآخر كموضوع في تخوم النص الروائي الشرقي[7]، في الوقت الذي لم ينشأ النص الروائي نفسه عندنا إلا من خلال الاحتكاك بالآخر أصلا، أضف إلى ذلك

---

[4]: ينظر: محمد كمال الخطيب: المغامرة المعقدة (مقدمة في تاريخ العلاقة بين المجتمع العربي والغرب كما يظهرها الفن الروائي في نشوئه وتطوره)، ص48.

[5]: نبيل سليمان: وعي الذات والعالم (دراسة في الرواية العربية)، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية – سورية، الطبعة1، 1985، ص05.

[6]: ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، ص27.

[7] : نقصد هنا بالنص الروائي المشرقي، الرواية المكتوبة بمختلف اللغات في العالم الجنوبي مقارنة بالعالم الشمالي.

العلاقة المتجذّرة في التاريخ منذ القدم بين العالم الغربي والعالم الشرقي وبين الأمم، والعلاقات1 القائمة حاليا بمختلف أنواعها، وكل الاحتكاكات التي جمعت الشرق بالغرب.

2. التعدد الصوتي وإشكالية الأنا والآخر:

ارتبط الحديث عن تعدد الأصوات في الرواية الحوارية أو المبدأ الحواري، بالناقد الروسي ميخائيل باختين، بحيث استند في تعريفه لمصطلحه إلى دراسة أعمال الروائي دوسويفسكي، حيث اعتبر باختين الأعمال الروائية لهذا الأخير، رائدة فيما يسميه الرواية الحوارية.

يرى باختين أن أعمال الروائي دوستويفسكي ترقى لأن تصنف في خانة الرواية الحوارية، بحيث يقول في هذا الصدد، "دوستويفسكي هو خالق الرواية متعددة الأصوات polyphone))، لقد أوجد صنفا روائيا جديدا بصورة جوهرية"[8]، فيكون بهذا دوستويفسكي قد تجاوز الأشكال النثرية التقليدية، لأنه جسّد رواية متعددة الأصوات، وهو أول من انتبه إلى هذه التقنية.

وعلى أساس التقسيم الذي وضعه باختين للرواية، حيث جعلها تنقسم إلى صنفين، رواية أحادية الصوت، ورواية متعددة الأصوات، يمكن تعريف التعدد الصوتي أو الحوارية كتقنية روائية.

أما الرواية الأحادية الصوت، فهي تلك الرواية التي يستحوذ عليها صوت واحد من بدايتها إلى نهايتها، حيث لا نصغي كقراء إلا لصوت واحد متحكم على طول الرواية، فتكون بذالك رواية منلوجية يستولي فيها صوت السارد، وذلك بحرمانه الشخصيات الروائية من حرية التعبير، في حين تكون الرواية متعددة الأصوات لا يطغى فيها صوت واحد على حساب الأصوات الأخرى، ويتحقق هذا عندما يمنح الروائي الحرية لشخصياته المتخيلة في التعبير عن مواقفها وإبداء آرائها، فيتحقق بذلك تعدد صوتي في الرواية، بحيث نجد أن، " كل الأصوات تلعب دورا حقيقيا وجوهريا في الرواية يمثلون بأنفسهم قناعات أو وجهات النظر حول العالم"[9]، مما يسمح بالخروج عن جبروت صوت السارد.

من هنا نتساءل، كيف يمكن للتعدد الصوتي أن يؤثر في الرواية التي تتناول موضوع الأنا والآخر؟

---

[8]: ميخائيل باختين: شعرية دوستويفسكي، ترجمة جميل ناصف التكريتي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب، الطبعة الأولى، 1986، ص11.

[9]: المرجع نفسه، ص48.

إن موضوع الأنا والآخر في الرواية يتناسب أكثر مع الرواية متعددة الأصوات عن الرواية أحادية الصوت، وذلك بحكم أن الرواية عندما تتناول موضوع الأنا والآخر ترسم عالما خياليا تظهر فيه مواقف الأنا ومواقف الآخر.

إن تحقق موضوع الأنا والآخر في الرواية مرتبط بتنوع الشخصيات الممثلة لكل طرف، لكن تنوع الشخصيات لا يكفي لتحقيق الغرض، بل يجب على الروائي أن يمنحها جانبا من الحرية لإبراز مواقفها، وهذا لا يتأتى للروائي إلا من خلال "امتلاك قدرة غيرية، تمكنه من تجاوز ذاته والسماح للآخر بالتعبير عن نفسه بحرية"[10]، بكسر سلطة السارد والانفتاح على آراء الشخصيات بمختلف توجهاتها وتمثيلياتها.

في حين عندما يتعلق الأمر، بالرواية أحادية الصوت، فلا يمكنها أن تخدم الموضوع مقارنة بالرواية متعددة الأصوات، بحيث أنها لا تفسح المجال أمام الشخصيات لإظهار مواقفها، سواء أتلك التي تمثّل الأنا أم تلك التي تمثّل الآخر، لذا فهذا الصنف من الرواية أقل حظا في النجاح في تجسيد موضوع الأنا والآخر.

أضف إلى كل هذا، فإن "المتلقي يجذبه تنوع الشخصيات في آرائها وأهوائها"[11]، حيث إن تنوع الشخصيات يجذب المتلقي أكثر إلى تتبع أحداث الرواية، بالتركيز على مواقف الشخصيات والمقارنة فيما بينها، وصولا إلى لعبة الروائي في تجسيد الاختلاف في المواقف، انطلاقا من التعدد في الشخصيات.

إن استثمار التعدد الصوتي، يمنح الروائي فرصا أكثر للنجاح في تناول موضوع الأنا والآخر، على عكس الرواية أحادية الصوت، التي يرسّخ فيها الروائي سيطرة "صوت واحد، يدفعه إلى ممارسة الإرهاب الفكري على كل ما عاداه، إذ يقتل حرية التفكير لدى شخصياته، وبالتالي قد يقتل إمكانية بنائها جماليا، بعد أن يحرمها من نبض الحياة، الذي يقوم على التنوع"[12]، وهكذا يتضح جليا أن التعدد الصوتي يخدم موضوع الأنا والآخر في الرواية، أكثر مما يمكن أن تخدمه الرواية أحادية الصوت، دون أن ينفي هذا مقدرة الرواية أحادية الصوت الخوض في الموضوع نفسه.

---

[10]: ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، ص30.

[11]: المرجع نفسه ص29.

[12]: المرجع نفسه، ص31.

3. جمالية العنوان:

"الصدمة"، ترجمة للعنوان الأصلي للرواية "L Attentat"، وهي كلمة مفردة، وهنا نتساءل، ما دلالة هذا العنوان بالنسبة للنص؟

إن العنوان ترك مفتوحا على احتمالات عدة، لذلك يمكن أن نكوّن حوله مجموعة من الفرضيات التي يمكن أن تندرج تحت التأويل الصحيح له.

إذا فهمنا أن الصدمة تعني الانفجار، بحيث نكون قد ترجمنا الكلمة على حالها المادي، فإن الرواية تحتوي على حدثين رئيين يقومان على هذا الفعل، أولهما التفجير الذي قامت به سهام زوجة أمين في مطعم في تل أبيب، والثاني التفجير الذي استهدف سيارة الشيخ مروان من قبل الجيش الإسرائيلي، أين لقي أمين مصرعه، فأي الحدثين يقصد ياسمينة خضرا من العنوان؟ هذا في حالة ما إذا ربطنا العنوان بمدلوله المباشر والفعل المادي للحدث الذي يدل عليه العنوان.

أما إذا حاولنا تجاوز فهم العنوان على أنه مرتبط بهذين الحدثين، فيمكن أن نربطه بحدث آخر،ويتعلق الأمرفيه بالمعنى النفسي الذي يمكن أن يفهم من خلاله العنوان، ونقصد هنا الصدمة التي تعرض لها أمين، إثر إدراكه أن زوجته هي التي قامت بتفجير المطعم، هذا الحدث الذي غير حياته رأسا على عقب، إذ حوّلته هذه الحادثة من جراح رفيع المستوى إلى سكير، متهم، يمضي أيامه في البحث عن حقيقة ما وقع.

كل ما مضى، إذا ما اخترنا ربط العنوان بأحداث في الرواية، أما إذا تجاوزنا هذا، وربطنا عنوان الرواية بموضوع بحثنا (الأنا والآخر)، فربما دلّ على تنبؤ مسبق لما ستؤول إليه العلاقة بين الأنا والآخر، من عسر تحقيق التعايش، والصراع الحاصل بينهما، والذي يولد التنافر.

4. الفضاء الزماني والمكاني وإشكالية الأنا والآخر:

يختار ياسمينة خضرا أواخر القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين فضاء زمنيا لأحداث الرواية بصفة قصدية، وذلك من أجل أن يقرّب صورة الصراع الواقع بين الأنا والآخر قدر الإمكان من القارئ المعاصر، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالأنا العربية الفلسطينية وبالآخر اليهودي الإسرائيلي، وتجدر

الإشارة إلى أن الروائي لم يحدد التاريخ بصيغة صريحة إلا أنه أدرج في الرواية مجموعة من الأحداث تحمل تلميحا إلى الزمن الذي تجري فيه الأحداث، من مثل حديثه عن جدار الفصل العنصري كما يسميه العرب والمسلمون، أو الحاجز الأمني كما يسميه اليهود، ولقد تم تشييد الجدار انطلاقامن سنة 2002، وذلك علما أن أول طبعة لهذه الرواية صدرت سنة 2005، وهذا إن دلّ على شيء، فهو يدل على أن الروائي ياسمينة خضرا يتجاوب مع قضايا العصر، ويغوص فيما يعانيه الإنسان المعاصر من آلام وأقراح تؤرقه.

والتركيز على مثل هذه الفترة الزمنية، يعني اختيار مرحلة متأزمة في العلاقة بين الأنا والآخر، حيث توترت العلاقة بين العرب المسلمين واليهود، وبرز صراع ذو طبيعة جديدة بعد حرب 1967، وهي الفضاء الزماني الذي اختاره الروائي لتدور فيه أحداث الرواية.

أما بالنسبة للفضاء المكاني، فإذا كان ياسمينة خضرا حاول الاقتراب من الحاضر قدر الإمكان لتجسيد العلاقة بين الأنا الآخر، فإنه في إطار اختياره لفضاء مكاني تدور فيه أحداث الرواية، جعل من تل أبيب، بيت لحم، جنين، الناصرية...، فضاء مكانيا بكل ما تحمله من دلالات، وخاصة تل أبيب التي جعلها مسرحا لمعظم أحداث الرواية، فقد حاول الإشارة إلى ظاهرة معاصرة ظهرت في الساحة الفلسطينية، وهي هجرة بعض الفلسطينيين ليعيشوا في إسرائيل، ومثّلهم بالبطل أمين رفقة زوجته سهام.

لقد ظهرت عديد من الروايات التي تتناولت موضوع لقاء الأنا بالآخر، إلا أنه عادة ما يكون اللقاء في أوربا أو إحدى البلدان العربية، على شاكلة رواية "موسم الهجرة للشمال"[13]، أين كان اللقاء بين الأنا والآخر في لندن، وروايات أخرى تجعل الآخر يحمل هوية اليهودي، على شاكلة رواية "اليهودي الحالي"[14]، والتي كان اللقاء بين الأنا والآخر في اليمن، وكذلك رواية "ربيع حار"[15]، أين كان اللقاء مع الآخر اليهودي على الحدود بين إسرائيل وفلسطين، لكن ياسمينة خضرا اختار أن تدور معظم أحداث الرواية في أرض متنازع عليها ممثلة بتل أبيب وجنين... بكل ما تعنيه هذه الرقعة للأنا، ما يعني أنه

[13] : رواية للروائي السوداني الطيب صلاح، تلتقي فيها الأنا ممثلة في شخصية بطل الرواية مصطفي سعيد في العاصمة البريطانية لندن.

[14] : رواية لعلي المقري، تستعرض العلاقة الإيجابية بين الأنا والآخر.

[15] : رواية لسحر خليفة.

اختار الغوص في أعماق العلاقة التي تجمع الأنا بالآخر، ورصد موقف كل منهما من الآخر، ولا شك أن هذا الاختيار لم يكن اعتباطيا من الروائي، بل كان متعمدا ومقصودا.

5. الأنا والآخر، ومحاولة تجاوز الصورة النمطية:

عادة ما تبني الأنا صورة نمطية عن الآخر، وكذلك يبني الآخر صورة نمطية عن الأنا، وهذه الصورة النمطية "ساهمت في تشكلها المخيلة البشرية انطلاقا من وقائع تاريخية، وأحداث ومواقف سياسية وأيديولوجية"[16]، ما يعني أن هذه الصورة النمطية التي تتكون لدى الأنا ولدى الآخر لا تحتكم على معايير موضوعية، تجعلها تحقق الصورة الحقيقية، وذلك لأن صورة الأنا وصورة الآخر لا يمكن أن تتميز بالثبات ما دامت الأجيال تتعاقب، فهذه الصورة النمطية غير منطقية إذا ما نظرنا إليها بعين المنطق.

سعى ياسمينة خضرا في البداية إلى تجاوز هذه الصورة النمطية للآخر اليهودي التي كونتا الأنا العربية الفلسطينية عليه، كما سعى إلى تجاوز الصورة النمطية للأنا التي كونها الآخر عنها، وذلك بمحاولة "خروجه النسبي على الشرنقة والإطلاقية"[17] السائدة، وذلك بتقديم صور إيجابية للأنا، وصور إيجابية للآخر.

أ• الصورة الإيجابية للأنا، أو الأنا ومحاولة الاندماج:

حاول ياسمينة خضرا في بداية أحداث الرواية، أن يبتعد عن اللغة التي تجسد الصراع بين الأنا الفلسطينية والآخر اليهودي، وذلك بالابتعاد عن لغة العنف ـ قدر الإمكان ـ في المواضع التي عرض فيها الأنا التي تحاول تحقيق الاندماج والسلم في علاقتها مع الآخر، ممثلة في شخصية الجراح أمين جعفري، وذلك عندما سعى الروائي إلى رصد اجتهادات أمين من جهة، من أجل النجاح وتجاوز كل العقبات التي تقف في طريقه، ومن جهة أخرى اختيار أمين السلم على الحرب، حيث آثر التركيز على ما يؤهله للوصول إلى حلمه بوصفه جراحا، متجاوزا بذلك كل الاعتبارات، "تخليت عن عشيرتي، وقبلت الانفصال عن أمي، ووافقت على التنازل تلو الآخر من أجل تكريس نفسي فقط لمهنتي بوصفي

---

[16]: عالية رزوقي: صورة الآخر في الرواية الجزائرية من سنة 1950 إلى سنة 2010م، ص43.

[17]: نبيل سليمان: وعي الذات والعالم (دراسة في الرواية العربية)، ص07.

جراحا18، فأمين كابد المشقة من أجل الوصول إلى حلمه، وهذا ما خوّله إلى أن يصبح جراحا، يشتغل في أحد مستشفيات تل أبيب.

ولا شك أن اختيار الروائي مهنة الجراح لشخصية أمين، كان موفقا فيها، بحيث أراد أن يظهره على أنه في خدمة الإنسان، بحيث سعى أن تكون الأنا في هذه الحالة إيجابية، تحقق النجاح على الصعيد الاجتماعي، وتحاول تحقيق التعايش مع الآخر والتأقلم معه، وذلك باستقرار أمين رفقة زوجته سهام في تل أبيب، بجوار الآخر اليهودي، دون أن يسبب له ذلك أي إزعاج.

من خلال شخصية أمين، حاول الروائي تجاوز تلك الصورة النمطية التي يرسمها عادة الآخر اليهودي للأنا الفلسطينية، على أنها تمثل دائما الإرهابي المعادي لليهود الذي يزعجهم، ويحرمهم من الراحة والطمأنينة.

يستمر الروائي في عرض صورة إيجابية للأنا في عين الآخر، دائما عبر شخصية أمين، الذي اختار الابتعاد عن سبيل العنف، الذي يختاره عادة أقرانه في مواجهة الآخر اليهودي، "لم أشعر بنفسي أبدا معنيا، بأي شكل من الأشكال بالنزاع الدموي الذي يقتصر في الحقيقة على المواجهة السرية بين الضحايا وأكباش المحرقة لتاريخ آثم، متأهب على الدوام لإعادة الكرة [...] اخترت التخفيف عن المرضى، إنني أمارس أنبل مهنة في العالم، ولا أريد لقاء كل كنوز الدنيا أن أهدد الاعتزاز الذي تمنحني إياه"[(18)]، كل ما نعت به الروائي أمين ما هو إلا مسعى من أجل رسم صورة مشرقة للأنا في عين الآخر، وذلك بإبعاد أمين عن كل ما يعكر علاقته مع الآخر.

ب• الصورة الإيجابية للآخر، أو محاولة التعايش مع الأنا:

إن محاولة ياسمنة خضرا، رسم صورة إيجابية للأنا في عين الآخر، عبر شخصية أمين، بحيث جعل هذا الأخير صورة للأنا التي تحاول الاندماج مع الآخر، تلتها محاولة أخرى لرسم صورة إيجابية للآخر في عين الأنا، وذلك بالتركيز على الاستقبال الذي حظي به أمين من بعض العناصر التي تحسب على الآخر، والسعي وراء إقامة علاقة وطيدة معه، وتجنب كل المعاملات التي تدل على نفور الآخر من الأنا.

[18]() : المرجع نفسه، ص191.

تظهر الصورة الإيجابية التي رسمها الروائي للآخر من خلال تتبع سلوك بعض الشخصيات التي تمثل الآخر،من مثل عزرا بن حايم، رئيس أمين في العمل، والذي كان يساعده على التأقلم وتخطي العقبات، ويقف إلى جانبه في حالات عدة، "وقف إلى جانبي، كان لا يزال رئيس قسم متواضعا، لكنه وظف النفوذ القليل الذي يمنحه إياه منصبه لإبعاد خصومي"[19]، فكان عزرا بن حايم، نموذجا للآخر الذي انسجم مع الأنا، وحاول التعايش معها، بحيث كان تعامله بإيجابية مع الأنا، حيث كسرت من خلاله الصورة النمطية، التي عادة ما ترسمها الأنا للآخر اليهودي، على أنه معاد للأنا ولا يتقبل وجودها.

كما يعرض الروائي نموذجا ثانيا للآخر الإيجابي، الذي يحاول النظر بعين النقد إلى تصرفاته، والابتعاد قدر الإمكان عن النظرة النمطية السائدة التي يشكلها الآخر عن نفسه، ومثل هذا النموذج شخصية بنيامين يهودا شقيق كيم يهودان صديقة أمين، وذلك حين نرى أن بنيامين، في كل مرة، يواجه الصراع الذي يدور بين الإسرائيليين والفلسطينيين بنظرة موضوعية، حين لا نراه ينحاز للطرف الذي ينتمي إليه، وذلك مثلا في الحوار الذي جمعه بعزرة بن حايم، حيث عرض موقفه تجاه الصراع الدائر، "...لا نكف عن عدم استيعاب الأمور[...]، هل المواكب الجنائزية التي تتقاطع من هذا الطرف الآخر قد جعلتنا نحرز تقدما؟ [...]، ربما نحن الذين نرفض الاستماع إليهم"[20]، نرى هنا أن بنيامين، لم يتوان في توجيه سهام النقد لبني جلدته دون أي حرج، فهو يمارس النقد الذاتي، وبهذا يكون الروائي قد رسم مرة أخرى صورة إيجابية للآخر، الذي يحاول تفهم الأمور، ويكون حياديا في تعاطيه مع ما يحدث حوله.

أضف إلى هذا، فلقد عرض الروائي صورة أخرى إيجابية للآخر، وذلك بعرض موقف مجموعة من المرضى اليهود تجاه أمين، فبعد أن أقدمت زوجته على تفجير مطعم في تل أبيب، لم ينساق هؤلاء المرضى الذين يعرفون أمين مع الأصوات المنددة بطرده من العمل وتجريده من جنسيته، لكنهم اعتبروه بريئا من العملية، "تلقت إدارة الصحة سيلا من الرسائل من مرضاي السابقين وأقاربهم واعتبروا فيها أنني كنت ضحية، أسوة بالضحايا الذين لقوا مصرعهم في المطعم الذي فجرته زوجتي"[21]، فهذا موقف

[19]: المرجع نفسه، ص13.

[20]: المرجع نفسه، ص80.

[21]: المرجع نفسه، ص113.

إيجابي آخر يصدر من الآخر تجاه الأنا، من خلال سلوك المرضى المتفهم، فهؤلاء المرضى لم يقعوا ضحية للمؤامرات التي حاكها بعضهم ضد أمين إثر التفجير، وضد الأنا بصفة عامة، فرفضوا الانصياع للأصوات التي تدعوا إلى الكراهية، التي تصدر أحكاما تعسفية في حق الأنا.

حاول الروائي أن يرسم نموذجا للأنا الإيجابية في عين الآخر، كما رسم أيضا نماذج إيجابية للآخر في عين الأنا، عندما أضفى على هؤلاء نزعات إنسانية، متجاوزا تلك النظرة التي ترى أن "العلاقة بين الأمم والحضارات [...] علاقة قوة وتحكم وسيطرة، وبالتالي استسلام ورضوخ ومعاناة"[22]، وذلك بالانفتاح على العلاقة السلمية التي تجمع الأنا بالآخر، والتي وردت في بعض المقاطع الرواية.

لكن، هل استمر ياسمينة خضرا في عرض نماذج إيجابية عن الأنا وعن الآخر على طول الرواية، وجعل العلاقة بينهما مستقرة تقوم على التفاهم المتبادل، وبالتالي تحقيق التعايش؟ هذا ما سنعرج عليه في العنصر اللاحق من البحث، كما سيمليه علينا تحليل الرواية.

6. تجذّر الصورة النمطية لدى الأنا والآخر:

لم يطل ياسمينة خضرا في محاولات رسم صورة مشرقة للأنا في عين الآخر، ولا الصورة الإيجابية للآخر في عين الأنا، فيبدوا أنه لم يجد مفرا للابتعاد من واقع الصراع الذي يحكم العلاقة بين الأنا والآخر، خاصة حين يتعلق الأمر بالأنا ممثلة بالهوية العربية الفلسطينية، والآخر ممثلا بالهوية الإسرائيلية اليهودية.

فبالرغم من محاولاته عرض بعض النماذج لبعض الأطراف التي تحقق التعايش والاندماج والتفاهم ، راسما صورا إيجابية للطرفين، إلا أنه عاد ليصور التوتر الذي طالما حكم العلاقة بين الأنا والآخر.

في مقام تجسيده لصور التعصب وعدم تقبل الرأي الآخر، عرض الروائي لموقف الإمام من أمين الذي اختار الاندماج مع الآخر ورفض العنف ومنطق الصراع، بحيث لم يتقبل الإمام خيار أمين الذي قام على نبذ واقع الحرب المستمرة بين الأنا والآخر، ويظهر ذلك في الحوار الذي جمعهما، عندما سافر

[22]: جورج طرابيشي: شرق وغرب رجولة وأنوثة (دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة 4، 1997، ص12.

أمين إلى بيت لحم بحثا عن الأطراف التي كان يظن أنها دفعت بزوجته إلى إحداث التفجير، حيث قال الإمام متوجها بالحديث إلى أمين، "أنت بالنسبة إلي مجرد بائس مسكين، يتيم شقي بلا إيمان ولا خلاص، يهيم كالماشي في نومه في وضح النهار، حتى لو مشيت على الماء لن يغسل ذلك العار الذي تجسده، فإن ابن الزنا الحقيقي ليس ذاك الذي لا يعرف أباه، بل ذاك الذي يجهل المعالم التي تهدي سبيله، ومن بين كل العنزات الجربانة، إنه أكثرها مثارا للشفقة وأقلها بكاء"[23]، يظهر أن صوت الإمام يمثل صوت الأنا المنغلقة التي لا تسمع إلا آراءها ومواقفها، ولا تحاول تفهم رأي الآخر، حتى لو تعلق الأمر بشخصية تحسب على الأنا، فهو لم يتقبل موقف أمين، لكنه شدد في لهجته في وصف أمين بالبائس والمسكين...

أما بالنسبة لموقف الأنا من الآخر، فلقد ظل دائما – بصفة عامة – قائما على رسم تلك الصورة النمطية للآخر الإسرائيلي اليهودي، على أنه المحتلّ الصهيوني الذي سلب أراضي الشعب الفلسطيني، ووفقا لهذه الصورة جاءت تصرفات الأنا، كما رسمتها الرواية، معادية لهذا الآخر، إما بإعلان الجهاد في سبيل القضية، أو تأييد العمليات التي تستهدف الآخر وتلحق الضرر به.

وما يميز تجربة لقاء الأنا بالآخر، التي جسدها ياسمينة خضرا في هذه الرواية، أنه تجاوز تلك الصورة التي رسمتها الرواية الشرقية عادة للقاء الأنا بالآخر، حيث "يتعذر حضور المرأة العربية شخصية متخيلة وصاحبة تجربة للقاء بالآخر"[24]، والنماذج كثيرة وأبرزها رواية الطيب صلاح "موسم الهجرة للشمال"، أين كانت الأنا ممثلة في العنصر الذكوري وبالضبط بشخصية مصطفى سعيد، فعلى غير العادة جعل ياسمينة خضرا من شخصية المرأة هذه المرة، صاحبة تجربة اللقاء إلى جانب الرجل، وذلك حين جعل من شخصية سهام، التي تقاسم زوجها أمين الحياة في تل أبيب فاعلة في الأحداث.

أما من جانب استقبال الآخر للأنا، فلقد كانت الصورة النمطية للأنا في نظر الآخر، هي التي سيطرت تقريبا على الرواية، عدى تلك المبادرات المحتشمة التي عرض لها الروائي، والتي أشرنا إليها في المبحث السابق.

---

[23]: ياسمينة خضرا: الصدمة، ص173.

[24]: عالية زروقي: صورة الآخر في الرواية الجزائرية من سنة 1950 إلى سنة 2010م، ص52.

سعى ياسمينة خضرا، من خلال إبراز الصورة النمطية التي يستقبل بها الآخر الأنا، إلى عكس صورة للآخر، و"فضح رؤيته المركزية التي انطلق منها، وأدّت إلى انحراف نظرته لذاته وغيره، مما نسج سوء تفاهم بينه وبين كل من يختلف عنه"[25]، وذلك ما أدى به إلى إصدار مجموعة من السلوكات التي تبيّن مدى انغلاقه على نفسه، وبالتالي أشاع ثقافة الحقد والكراهية.

تظهر في الرواية مواقف عدة، كان فيها سلوك الآخر انتقاميا، ومن ذلك ما بدر من مجموعة من اليهود، بعد التفجير الذي أحدثته سهام، حيث حاولوا قتل أمين انتقاما منه، بالرغم من أن لا علاقة له بالتفجير، "طاردني المعتدون عليّ إلى داخل حديقتي، وظلوا يوسعونني ضربا بعد أن طرحوني أرضا، ظننت، أمام عيونهم التي تقدح شررا وأفواههم المزبدة أنهم سوف يجرونني ويعدمونني"[26]، فهذا السلوك الانتقامي الذي بدر من الآخر، يدل دلالة واضحة على أن أحكامه التي يصدرها في حقّ الأنا شمولية لا تستثني أحدا، وإن كانت هذه الأنا ممثلة في شخصية لا تتقاسم مع نظرائها المواقف نفسها.

كما يظهر في موقف آخر، يترجم الصورة التي يرسمها الآخر للأنا، ويتضح ذلك من موقف الدكتور إيلان روس من أمين زميله في العمل، حيث يصفه السارد، "لا يسمح لنفسه أن ينسى أصولي وإرثي وإن تلازما في بعض الأحيان، على الرغم من مهاراتي بوصفي جراحا ونجاحي في علاقاتي المهنية والاجتماعية، أظل في نظره العربي الذي لا ينفصل عن أصوله الوضيعة، وبدرجة أقل عن كونه العدوّ المحتمل"[27]، فلم تسمح لأمين لا علاقاته الاجتماعية الناجحة في مجتمع الآخر ولا مهاراته المهنية في أن يتجنب نظرة الاحتقار التي ينظر بها إليه الآخر.

أضف إلى هذا مجموعة من ردود الأفعال التي صدرت من الآخر، من ضمنها مطالبة بعض الأعضاء من الطاقم الطبي في المستشفى الذي يشتغل فيه أمين، بسحب الجنسية الإسرائيلية منه، بعد التفجير الذي أحدثته زوجته، وكذلك إقدام الجيش الإسرائيلي على هدم مسكن العم عمروا، إثر العملية التفجيرية التي أحدثها حفيده وسام...، كل هذه التصرفات التي بدرت من الآخر، تدلّ على أنّ النظرة

---

[25]: ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، ص25.

[26]: ياسمينة خضرا: الصدمة، ص72.

[27]: المرجع نفسه، ص98.

النمطية للآخر تجاه الأنا كانت هي المسيطرة، وذلك أن هذا الآخر غالبا ما يصدر أحكاما تعسفية جماعية في حق الأنا، مما يدل على تجذّر الصورة النمطية للأنا في ذهن الآخر.

وبهذا يكون الروائي، قد رسم لنا الصورة النمطية للآخر المتجذّرة عند الأنا ، وكذلك الصورة النمطية للأنا المتجذّرة عند الآخر، وعبّر عن استحالة تجاوزها، لأنها مرسخة في الذهن، وهذا سبب تأزم الصراع بين الأنا والآخر.

7. جمالية الخاتمة:

سعى ياسمينة خضرا إلى عرض الصراع بين، إمكانية تحقيق التعايش بين الأنا والآخر، بتجاوز الصورة النمطية للأنا وللآخر من جهة، وبين تجذّر الصورة النمطية للأنا والآخر من جهة أخرى، فكيف كانت نتيجة هذا الصراع؟ هل أبقاه الروائي مفتوحا؟ أم أنه انحاز لأحد الطرفين، حيث غلب الكفة لأحد أطراف هذا الصراع ؟

بعد حادثة تفجير سهام للمطعم، سعى الروائي إلى تتبع التغير الذي طرأ على حياة البطل أمين، وتتبع رحلته في البحث عن الحقيقة، وذلك ما دفع بأمين بالعودة إلى مسقط رأسه، وهنا بيّن الروائي حجم الدمار الحاصل جراء الصراع الدائم الذي يحكم العلاقة بين الأنا والآخر، ففي موقف حديثه عن جنين، قال،" في جنين يبدوا أن العقل هشم أسنانه ورفض أي جهاز صناعي من شأنه أن يعيد البسمة إلى ثغره، لقد شدّ المرح القديم الرحال منذ أن صارت الرياح مؤاتية للأكفان والرايات"[28]، فهو هنا يعرض مقارنة بسيطة بين حال مدينة جنين في الماضي وحالها في الزمن المعاصر، وذلك ليصل إلى نتيجة مفادها أن العلاقة بين الأنا والآخر في تدهور مستمر، في الوقت الذي يغيب فيه صوت العقل.

وتختم أحداث الرواية، بمقتل البطل أمين، إثر القصف الذي استهدف سيارة الشيخ مروان، أين كان أمين موجودا يبحث عن فاتن التي قررت هي الأخرى الانضمام إلى الانتحاريين، إثر تدمير الجيش الإسرائيلي لبيت جدها عمرو عميد العشيرة، هناك لقي أمين مصرعه وذهب ضحية دون ذنب.

[28]: المرجع نفسه، ص230.

أنهى ياسمينة خضرا روايته، بحادثة مقتل أمين، ليبن لنا عواقب الصراع الدامي الذي نشأ بين الأنا والآخر، جراء الصورة النمطية التي يرسمها كل منهما للآخر، فحتى أمين الذي اختار معسكر السلم ونبذ العنف طيلة حياته ذهب ضحيته، وكأن الروائي يلمح إلى يأسه من مستقبل علاقة حضارية بين الأنا والآخر، يتحقق فيها السلم والتعايش.

خاتمة:

أخيرا يمكن القول، .إن هذه الدراسة، وفي سعيها إلى تتبع طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر التي جسدتها الرواية، قد توصلت إلى مجموعة من النتائج، نجملها بالقول، إن موضوع الأنا والآخر هو أحد مواضوعات التجريب الروائي الذي يتماشى مع الرواية بوصفهاجنسا أدبيا أكثر مما يتماشى مع غيرها، وذلك نظرا للطبيعة الفنية للرواية ومميزاتها، أضف إلى ذلك أن تقنية تعدد الأصوات أو البوليفونية في الرواية عنصر ثان يخدم موضوع الأنا والآخر أكثر مما تخدمه الرواية الأحادية الصوت، ولقد حاول ياسمينة خضرا أن يخوض في الموضوع من خلال روايته التي كانت موضوع دراستنا، فصور طبيعة الصراع الذي يحكم علاقة الأنا بالآخر، خاصة إذا علمنا أن الأنا ممثلة هنا بالشخصية العربية الفلسطينية والآخر ممثل بالشخصية الإسرائيلية اليهودية، وحاول أن يتجاوز طبيعة هذه العلاقة التي تقوم على مبدأ الصراع، من خلال خلقهلشخصية أمين المحسوبة في حيز الأنا، ونسب إليها مواقف تنبذ العنف وتسعى للتعايش، كما خلق شخصيات تحسب في حيز الآخر، وصور استقبالها للبطل على أنه مرحب به، لكن سرعان ما ساءت طبيعة هذه العلاقة،على الرغم من مساعي التعايش، ولقد عبّرت خاتمة الرواية عن اليأس من العلاقة المستقبلية التي ستحكم علاقة الأنا بالآخر، وذلك ما تمثلناه من خلال التحوّل الذي طرأ على حياة البطل، ونهايته المأساوية.